

أوروبا والمسلمون: صورة الآخر رؤية أسيرين أوروبيين من القرن الخامس عشر الميلادي

■ حاتم الطحاوي

أثّرت الرؤية الأولى للإسلام من قِبَل
المسيحية الشرقية¹ في كافة ردود أفعال أوروبا
في العصور الوسطى؛ حيث طغت الرؤى السلبية،
وأسهمت في رسم وتوجيه السياسات الأوروبية تجاه
الإسلام والمسلمين.

ومن نافذة القول أن نذكر أن النخبة الأوروبية
التي صاغت تلك الرؤى جاءت من رجال الكنيسة،

1 - عن الرؤى المبكرة للإسلام. راجع:

Sahas, D; John of Damascus on Islam: «The Heresy of the Ismaelites», Lieden, 1972; Rotter, B., Die Schriften des Johannes von Damaskos, (Patristische Texte und Studien) vol. 4, New York, 1981; Muir, W., The Apology of Al-Kindi Written at the Court of Al Mamun in Defence of Christianity Against Islam, London, 1882; Hoyland, R., Seeing Islam as Others Saw it. A Survey and Evaluation of Christian, Jewish and Zoroastrian Writings on Early Islam, New Jersey, 1997.



باعتبارهم القادة الروحيين للشعب المسيحي، وعلى أساس أنهم وحدهم الذين حظوا بقدر لا بأس به من التعليم في أوروبا العصور الوسطى.

ونظراً لتوفر كتابات النخب الأوروبية الكنسية والعلمانية، تحاول هذه الورقة تلمس صورة أخرى مغايرة عن الإسلام والمسلمين في كتابات تعبر عن مشاعر الأوربيين العاديين، وبشكل خاص أفراد الطبقة غير المثقفة من الجنود والأسرى وما يحملونه من رؤى منبثقة من ثقافتهم المحدودة التي أنتجت تصورات شعبية متباينة عن الآخر المسلم. كما تعكس في الوقت نفسه صورة تلقائية غير متعمدة، وإن كانت بطبيعة الحال متأثرة بالأوضاع الاجتماعية والثقافية لأصحابها.

كان الفتى الألماني يوهان شيلتبرجر Johan Schiltberger في الرابعة عشرة من عمره عندما غادر منزله القريب من مدينة ميونيخ 1394م؛ لمرافقة سيده الأمير لينهارت ريتشارتجر Leinhart Richartinger واللاحق بالحملة الصليبية التي دعى إليها سيجموند Sigmond ملك المجر لمحاربة العثمانيين في نيقوبوليس 1396م. غير أن السلطان العثماني بايزيد الأول Bayezit 1 المعروف بالصاعقة Yidrim حقق انتصاراً مدوياً على القوى الأوروبية في تلك المعركة الشهيرة، التي خلّفت آلاف القتلى والأسرى من الجانب المسيحي. وعلى أثرها أيضاً سقط شيلتبرجر أسيراً في قبضة الجنود العثمانيين¹.

ونظراً لصغر سن الأسير الألماني، الذي كان يبلغ السادسة عشرة فقد احتفظ به السلطان العثماني؛ ليعمل ضمن حاشيته كجندي مراسلة runner. وظل شيلتبرجر أسيراً لدى العثمانيين لست سنوات، عندما قُدّر

1 - Schiltberger, J., The Bondage and Travels of Johann Schiltberger, Anarrative of Bavaria in Europe, Asia, and Africa 1396 - 1427, trans. by Buchan Telfer, N.Y., 1879, P.4.

له أن يحضر معركة جديدة وفاصلة هي معركة أنقرة 1402م، التي استطاع فيها العاهل المغولي تيمورلنك أن يلحق هزيمة مهينة بالسلطان بايزيد يلدرم الذي وافته المنية بعيد ذلك في الأسر المغولي. وترتب على ذلك أن انتقل الأسير شيلتبرجر للعمل في حاشية تيمورلنك لعدة سنوات إلى وفاة الأخير عام 1405م، لينتقل بعدها إلى خدمة ابنه شاه رخ، ثم إلى أبي بكر بن ميران شاه.

حدث هذا قبل أن يهبه الأخير بعد ذلك إلى صديقه جكره أوغلان Tchekre حاكم مغول القبيلة الذهبية، ليملك بعدها شيلتبرجر في خدمة المغول في روسيا حتى نجاحه في الهرب إلى وطنه في ألمانيا عام 1427م، وهناك أملى كتابه الذي أرخ فيه لفترة الأسر الطويلة.

وهكذا عاش الأسير الألماني محافظاً على مسيحيته الكاثوليكية أكثر من ثلاثة عقود «1396-1427م» في كنف المجتمعات المسلمة في أراضي العثمانيين والمغول. الأمر الذي جعله يمر بتجربة فريدة من نوعها مكنته من الاقتراب من المسلمين والدين الإسلامي وشعائره عن كثب، وهو ما جعله يخصص أكثر من عشرة فصول في كتابه للحديث عن الإسلام والمسلمين (الفصول 45-55). وإن كان ذلك قد تم دون أن يسبر أغوار الدين الإسلامي بشكل موضوعي وعميق، وذلك بفعل ثقافته المسيحية التي لازمته طوال فترة الأسر، فضلاً عن البيئة والمناخ الثقافي الذي عاش داخله في معية الجنود العثمانيين والمغول.

أما الأسير المسيحي الثاني فكان الصربي قسطنطين ميخائيلوفتش Konstantin Mihailovic التابع للكنيسة الصربية التي تبنت المذهب الأرثوذكسي لكنيسة القسطنطينية البيزنطية¹ منذ القرن العاشر

Soulis, G. S., «The Legacy of Cyril and Methodius to the southern Slaves», in, DOP, - 1 vol. 19, 1965, p.36.



الميلادي، فقد سقط مع أخويه في قبضة الحملة العثمانية التي أرسلها السلطان محمد الفاتح لمهاجمة الصرب بعد نجاحها في الاستيلاء على مدينة نوفوبرادو Novobrado عام 1455م، وفي طريق العودة حاول ميخائيلوفتش الهرب مع مجموعة من رفاقه الأسرى عبر الغابات والجبال، غير أنهم فشلوا في ذلك، مما دفع العثمانيين إلى القبض عليهم من جديد¹.

وخلال فترة الأسر لدى العثمانيين عمل ميخائيلوفتش جندياً في فرقة الإنكشارية Janissary في الجيش العثماني، فشارك مع جنود السلطان الفاتح في حصار مدينة بلجراد في العام التالي 1456م، وكذلك في الحملات على المورة 1458م وطراييزون 1461م وضد دراكولا Dracula حاكم ولاشيا عام 1462م².

كما اشترك في نهاية خدمته العسكرية في الحملة العثمانية على البوسنة عام 1462م، وأثناء ذلك تواجد ميخائيلوفتش مع الجنود العثمانيين في قلعة Zvecež قبل أن يهاجمها ملك المجر ماثيو كورفينوس ويقوم بأسره ضمن حاميتها من الإنكشارية³. وهكذا عاد إلى بلاده وهو غني بخبراته وذكرياته عن ثماني سنوات من الأسر (1455 - 1462م) قضاها بين العثمانيين المسلمين، حيث خلف كتاباً استعاد فيه ذكرياته مع الإنكشارية، وانطباعاته عن الدولة العثمانية والإسلام.

ويجب علينا قبل الولوج إلى ما ذكره الأسيرين - شيلتبرجر وميخائيلوفتش - من انطباعات عن الدين الإسلامي والمسلمين أن نذكّر

1 - Konstantin Mihailovic, *Memoirs of A Janissary*, trans. by Benjamin Stolz, Ann Arbor, 1975, P. 99.

2 - Ibid, PP. 117-119; 131-132.

3 - Ibid, PP. 141-143.

بأن ما كتبه لا يمكن أن ينفصل عن المناخ السياسي والعسكري وحالة العداء بين أوروبا المسيحية والعثمانيين المسلمين آنذاك، وهو ما تجلّى عبر العديد من ردود الفعل الثقافية من الجانبين، كما لا يمكن أن ينفصل أيضاً عن وطأة تجربة الأسر وإسقاطاتها.

**انعكس المناخ الثقافي
المحدود لهؤلاء الجنود
الأسرى على تصوراتهم
عن الإسلام الحقيقي،
وهو الأمر الذي استمر
أيضاً لدى شيلتبرجر في
سنوات أسره الطويلة**

وهكذا انعكس المناخ الثقافي المحدود لهؤلاء الجنود على تصوراتهما عن الإسلام الحقيقي، وهو الأمر الذي استمر أيضاً لدى شيلتبرجر في سنوات أسره الطويلة عند مغول القبيلة الذهبية بفضل المؤثرات الثقافية التي ربطت بين الأتراك والمغول. ويبدو أنهما قاما بعد ذلك بتدوين كافة ما استمعا إليه من معلومات مشوشة اختلطت فيه الحقيقة

بالأسطورة عن الإسلام وتعاليمه وشرائعه، ونبي المسلمين، لدرجة أن شيلتبرجر ذكر أن المسلمين يدينون بعدة ديانات، فعلى الرغم من أن معظمهم يؤمنون بمحمد، فإن منهم من يؤمن بعلي بن أبي طالب، والبعض الآخر بشيخ مسلم يدعى الملا Molwa¹، والبعض الآخر يؤمن كما آمن الملوك الثلاثة قبل تعميدهم، بل إن بعضهم يعبدون النار!!.

وهكذا، فمن البداية تبدو عدة دلائل لا يمكن إغفالها: الأولى: أنه قام بجمع كافة الأديان والعقائد التي سمع عنها كالإسلام والمسيحية والزرادشتية والشامانية والمانوية، وآمن بها السكان في الأقاليم التابعة للعثمانيين ومغول القبيلة الذهبية، واعتقد أنها جميعاً أديان يؤمن المسلمون بها.

«The Bondage and Travels», P. 65.



وفضلاً عن هذا، فعلى الرغم من وجود شيلتبرجر في الفضاء العثماني والمغولي السُّنِّي فإنه يمكن بسهولة ملاحظة تأثيره بالمؤثرات الشيعية، بفضل بقايا الشيعة الإسماعيلية الذين انتشروا في الأناضول وآسيا الوسطى.

واختلطت الحقيقة بالأسطورة في العديد من تصورات شيلتبرجر تجاه الإسلام والمسلمين. من ذلك النبوءة المتعلقة بنبي المسلمين قبل أن يأتيه الوحي، فبعد أن ذكر أنه وُلد في الجزيرة العربية لأبوين فقيرين، وفي صباه طلب من بعض التجار مرافقتهم في إحدى القوافل التجارية إلى مصر من أجل رعاية الإبل والخيول¹. في إشارة إلى الدور الاقتصادي لتجار قريش قبيل الإسلام، في ظل ما نعرفه من خلال تردد القوافل التجارية بشكل خاص على الشام واليمن ومصر². غير أنه أشار في ملاحظة تدعمها الوقائع التاريخية أيضاً أنه حينما كان يتوقف النبي محمد عن سيره كانت تظلمه غمامة دائماً³.

1- «The Bondage and Travels», P.65.

2- تناولت العديد من المصادر التاريخية الإسلامية تجارة قريش مع الشام واليمن ومصر. راجع أيضاً ما ذكره ثيوفانس عن سفر النبي محمد بتجارة السيدة خديجة إلى مصر وفلسطين قبل الإسلام. Chronographia, P.464.

3- Ibid, P.66.

من الواضح أن حديث شيلتبرجر يتطابق تماماً مع ماورد في كتب السيرة النبوية. راجع على سبيل المثال: ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبدالحفيظ شلبي، القسم الأول، الجزء الأول، القاهرة، دت، ص 181-183، 188 حيث يتناول نفس التفاصيل تماماً حول دور الراهب بحيرى الذي استضاف القافلة في بصرى على تخوم الشام ونبوءته عن نبوة الشاب محمد المرافق للقافلة. وعلى الرغم من تكرار ورود تلك الرواية في كتب السيرة فإن بعض المؤرخين قد رفضوها لضعف السند، عن ذلك راجع: الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، السيرة النبوية، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دت، ص 57.

واعتماداً على المناخ الثقافي المعادي للإسلام والمسلمين في أوروبا، ونتيجة لوطأة الأسر الطويل الذي رافق شيلتبرجر، فقد أكد بشكل دائم في كتاباته - بوصفه شاهد عيان على الانتصارات العثمانية على بيزنطة والقوى الأوروبية - على أن مسألة اضطهاد المسيحيين وأسرهم هي مسألة قديمة تقع في بنية الدين الإسلامي نفسه¹.

ولعل أوضح مثال على اختلاط الأسطورة بالحقيقة عندما أشار إلى أن محمداً قد تزوج من زوجة ملك مصر بعد وفاة الأخير، ثم قام بدعوة أتباعه إلى الإيمان بالله خالق السموات والأرض بدلاً من عبادة الأوثان².

استمر شيلتبرجر في روايته ليذكر أن محمداً استعان بأربعة من أتباعه من المتفقيين في الدين الجديد³. وعلى حين اعترف أن أبا بكر قد احتل مكانة أرفع من الباقيين، فإنه عاد وأشار إلى أن محمداً اختص علي بن أبي طالب بمنزلة خاصة. «...فجعل له الرئاسة على

1- «The Bondage and Travels», P. 73, 78.

من ذلك إشارته إلى تهم ألف كنيسة يوم ميلاد نبي المسلمين. واستمر شيلتبرجر في التركيز على هذه المسألة، فزعم أن كتاب المسلمين القرآن Alkoray يذكر أنه تم قتل تسعين ألفاً من المسيحيين في يوم واحد، ولهذا أسلمت الجزيرة العربية كلها. راجع p.67
2- ولعل تلك الدعوة هي الوحيدة التي لم يدخلها التشوش لدى شيلتبرجر. فقد ذكر بموضوعية أن نبي المسلمين «..دعا إلى الإيمان بالله خالق السموات والأرض، وليس بالأصنام التي صنعها البشر، التي لا تسمع بأذانها ولا تبصر بأعينها، ولا تتكلم بألسنتها، وليس لها قدم ولا تستطيع السير، ولا تملك دفع الضرر عن نفسها». راجع: P.67

3- Ibid, P. 77.

ذكر شيلتبرجر أن نبي المسلمين عهد بمسؤولية التشريع الديني إلى عمر بن الخطاب، والتشريع الدنيوي إلى عثمان بن عفان، بينما تولى أبوبكر الصديق مسألة الحسبة والموازن والصناعات.



جميع قومه»، كما عهد إليه بمحاربة مسيحيي الجزيرة العربية وإكراههم بالسيف على دخول الإسلام¹.

وبعيداً عما أصاب أفكار شيلتبرجر عند حديثه عن الخلفاء الراشدين دون ترتيب حقيقي. وكذا خلط أعمال الحسبة بالتشريعات الدينية والدنيوية، فإن إشارته إلى علي بن أبي طالب ودوره تحمل أيضاً مؤثرات شيعية واضحة كانت موجودة وسط الفضاء العثماني السُّني.

غير أن المسألة الجديرة بالاهتمام هي ما قام بترديده عبر التركيز على فكرة القتال والاضطهاد الذي أوقعه المسلمون بالمسيحيين في بيزنطة والبلقان، فهو يشير إلى أن نبي المسلمين أمر بنفسه بضرورة اضطهاد المسيحيين، وهو الأمر الذي أصبح نبراساً اهتدى به كافة المسلمين². بل أضاف - مدفوعاً بالواقع التاريخي الذي يحاصره في رحلة الأسر - أن المسلم الذي يقوم بقتل المسيحيين بهذه الطريقة يطلق عليه لقب غازي Ghazi³ «... ويوجد

4 - Ibid, P.67.

-1

«The Bondage and Travels», p. 74.

-2

وحسب كلماته «عقد أتباع محمد تحالفاً لقتل المسيحيين وعدم أسرهم، لدرجة أنه إذا التقى الطرفان في معركة، ولم يفلح المسلم في النيل من المسيحي، فإنه يتوجب عليه أن يشتري مسيحياً آخر من بين الأسرى، ليقوم بقتله».

3- راجع: P. 73 الغازي Ghazi وجمعها الغزاة Ghuzat في الأصل كلمة عربية دخلت إلى التركية. وأطلقت في تلك الفترة على الجندي الذي ضم أرضاً بالفتح للدولة العثمانية. كما أطلقت بشكل خاص على القادة والسلطين المجاهدين. انظر: شمس الدين سامي، قاموس تركي، إستانبول، 1917م، ص 960. وكان الغزاة العثمانيون يستمدون مبادئهم من قيم الفتوة Futuvvet. والغازي هو التابع لأوامر الله في الجهاد، وهو سيف الله على أعدائه وحامي المسلمين. وإذا ما استشهد في قتال غير المسلمين، فإنه سوف يصبح خالداً في السموات. عن ذلك. انظر:

Gustav Bayerle, Pashas, Begg and Efendis; A Historical Dictionary of Titles and Terms in The Ottoman Empire, Istanbul, 1997, P.68.

الكثير منهم في بلاد الأتراك، ودائماً ما يعادون المسيحيين؛ لأن هذه شريعتهم».

وهكذا قام شيلتبرجر بردة فعل ثقافية لمهاجمة المسلمين الذين نجحوا في أسره، بعد أن أسبغ وحشية كبرى على بنية الدين الإسلامي، كما أنه في الوقت نفسه انتقص من قدر العثمانيين الذين قاموا بأسره، وخط من شأنهم عبر امتهانه للقب الغازي، الذي أطلق على السلاطين والجنود العثمانيين؛ ليجعل الحصول عليه يسيراً.

ومن المناخ الثقافي المعادي للإسلام وللعثمانيين نفسه قام الأسير الصربي قسطنطين ميخائيلوفيتش بالتركيز على مسألة اضطهاد المسلمين للمسيحيين بشكل وحشي، فقد عزا إلى علي بن أبي طالب أيضاً أمره بضرورة تعذيب المسيحيين أينما كانوا، سواء في ديار الإسلام أم خارجها¹. كما تكررت الإشارة إلى سيفه الشهير «ذي الفقار» الذي وصفه بأنه كان حاداً وبارئاً ضد المسيحيين.

ومرة أخرى نجد أن شخصية علي بن أبي طالب قد احتلت مكانة متميزة، اختلطت فيها الحقيقة بغيرها لدى حديث ميخائيلوفيتش عن الإسلام. فقد أشار إلى تبجيل المسلمين له ورفعهم من قدره، لدرجة أنهم جعلوا منه نبياً مثل محمد الذي اصطفاه، وقام بتزويجه من فاطمة².

ويمكن القول بأن هناك تفسيراً موضوعياً لرؤية ميخائيلوفيتش المشوشة لرابع الخلفاء الراشدين، يتعلق بكونه قضى سنوات أسره

1- «Memoirs of A Janissary», P.9.

وحسب كلماته «ابحثوا عنهم في بلادهم، بدلاً من أن تنتظروهم في بلادكم».

2- Ibid, P.7 غير أنه أخطأ عندما تحدث عن فاطمة بوصفها أختاً لمحمد.



الثمانية 1455 - 1463م وسط جنود الإنكشارية العثمانيين، الذين كانوا يجلبون علياً بشدة بفضل علاقاتهم القوية مع طائفة البكتاشية الدراويش، وكان تبجيل عليٍّ أحد أهم مظاهر الممارسات الشائعة لهذه الطائفة ذات الجذور الشيعية في القرن الخامس عشر الميلادي.

حدث هذا قبل أن تتدهور صورة علي فيما بعد، إبان المواجهات العسكرية بين العثمانيين السُّنَّة والصفويين الشيعة في عصر السلطان سليم الأول منذ بدايات القرن السادس عشر الميلادي¹.

وهكذا يمكننا أن نلاحظ بسهولة أن رؤية الأسيرين شيلتبرجر وميخائيلوفيتش كانت منحازة ثقافياً ضد الرسول والمسلمين وضد مبادئ الإسلام وتوجهاته نحو المسيحيين. غير أن ما يلفت النظر هو أنهما عرضاً - في أمانة وحياد - موقف الإسلام من الدين المسيحي نفسه. فعلى حين ذكر شيلتبرجر أن المسلمين يؤمنون بميلاد المسيح من السيدة مريم العذراء، وأنه حدثها في المهد؛ فقد أشار ميخائيلوفيتش إلى أن المسلمين يعتقدون في الوقت نفسه أن السيد المسيح هو روح من عند الله².

كما اتفق الأسيران أيضاً في رؤية الإسلام لمسألة صلب المسيح. وعلى حين يذكر شيلتبرجر أن المسلمين لا يعتقدون أنه قد صلب، بل تمّ صلب شبيه له³، يزيد ميخائيلوفيتش أن المسلمين يذكرون أن اليهود

1- حقق السلطان العثماني سليم الأول (1512-1520م) انتصاراً كبيراً على الشاه إسماعيل الصفوي في موقعة جالديران Caldiran عام 925هـ / 1519م وعلى الرغم من أن العديد من الجنود العثمانيين كانوا على المذهب الشيعي وأظهروا تراخياً أثناء المعركة فإن العثمانيين تمكنوا من النصر في النهاية. راجع: شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، الجزء الثالث، إستانبول 1308هـ، ص 1865 - 1866.

2- «Memoires of A Janissaries», p. 17.

= «The Bondage and Travels», p. 76.

-2

-3

حاولوا قتل السيد المسيح، غير أن الله وضع في طريقهم شخصاً شبيهاً به، فقاموا بالقبض عليه وتعذيبه قبل صلبه¹.

كما أشار أيضاً إلى أن المسلمين يذكرون أن السيد المسيح قد رُفِعَ إلى السماء ورحبت به الملائكة، وأنه سوف يهبط الأرض في آخر الزمان؛ ليدين اليهود، كما أنه سوف يقوم بإدانة المسيحيين أيضاً؛ لأنهم جعلوا منه إلهاً². ولم ينس أيضاً أن يذكر أن المسلمين يعدّون أنفسهم في مرتبة أعلى من اليهود والمسيحيين، بوصفهم المصطفين من أجل صحيح الإيمان، وأن المسيحيين قد أخطأوا كذلك لاعتقادهم في الثالوث المقدس.

إن رؤية الأسيرين
شيلتبرجر وميخائيلوفيتش
كانت منحازة ثقافياً ضد
الرسول والمسلمين وضد
مبادئ الإسلام وتوجهاته
نحو المسيحيين

ونتيجة لطول فترة الأسر لدى المسلمين فقد شهد كل من شيلتبرجر وميخائيلوفيتش حالات تحول عديدة من المسيحية إلى الإسلام، حيث ذكر الأخير أن الذين كانوا يسلمون بشكل سنوي كان عددهم كبيراً، وخص بالذكر منهم العديد من البحارة الإيطاليين. كما شهد بنفسه

حالة تحول نادرة إلى الإسلام كان صاحبها أحد رهبان جماعة القديس برنار St. Bernard³ في منطقة غلطة Galata بالعاصمة العثمانية الجديدة.

= وحسب كلماته «..كيف يصلب المسيح خير أصفياء الله والذي لم يرتكب ذنباً قط. إن صلبه يدل على افتقار حكم الله للعدل؛ إذ كيف يصلب الرب بريئاً».

«Memoires of A Janissaries» , p. 17. -1

Ibid , P. 19. -2

Ibid, PP. 191, 193. -3



وعلى الرغم من سابق إصدار كنيسة القسطنطينية تحذيراً إلى أهالي مدينة نيقية عام 1340م بعدم الدخول في الإسلام بعدما لاحظت حالات تحول عديدة عن المسيحية؛ فإن ذلك لا يعد قاعدة يقاس عليها للأسباب السابق ذكرها. كما أن المصادر التاريخية العثمانية - كابن عاشق باشا -¹ تحدثت أحياناً عن دخول قرى بأكملها في الإسلام، وأحياناً أخرى عن بقاء المسيحيين على دينهم في الأماكن التي فتحها العثمانيون.

على أن فرق الدراويش الصوفية كان لها الفضل الأكبر في عمليات التحول الديني باتجاه الإسلام في الأناضول والبلقان في الفترة العثمانية؛ فقد أولى البكتاشية اهتماماً واسعاً بهذا الأمر، وأرسل حاجي بكتاش العديد من الدعاة على رأسهم الشيخ صاري صالتيق Sari Saltik إلى الأراضي التابعة للبيزنطيين وإلى دوبرجة Dobruja والبلقان لتحويل السكان المسيحيين إلى الإسلام.²

وانفرد شيلتبرجر عن ميخائيلوفيتش بذكر المراسم التي تمت عند تحول الرجل المسيحي إلى الإسلام، فذكر أن عليه أن يرفع إصبعه عالياً ويردد: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» قبل أن يقوم بإنكار العقيدة المسيحية، ثم يقوم المسلمون بإلباسه ثوباً جديداً وعمامة بيضاء بدلاً من عمامة المسيحيين الزرقاء أو اليهود الصفراء³، ثم

- 1 AsikPasaoglu, op. cit, P.

- 2 انظر: شمس الدين سامي، المصدر السابق، الجزء الرابع، ص 2916؛ محمد فؤاد كوبريلي، المرجع السابق، الجزء الأول، ص 112؛

Vryonis, op. cit, P.378; Uyar, M., "Sari Saltik Populer Islam" in Balkanlardaki Destani Oncusu, Ankara Universitesi Dilve Tarih - Geografya Fakultesi, Tarihbolumu Tarih Arastermalare Dergisi, Cilt: 21, Sayi: 33, Ankara, 2003, s.189.

= The Bondage and Travels, p.74. - 3

يركبونه فرساً لتبدأ مراسم الاحتفال به، ويزفه الشيوخ والعوام مصحوباً بالطبل والصنج والمزامير في شوارع المدينة وهم يصيحون فرحاً، قبل أن يتم ختانه. وإن كان فقير الحال قاموا بجمع الهبات والتبرعات له حتى يبدأ حياته الجديدة¹.

والحقيقة أن ما ذكره شيلتبرجر يقترب كثيراً مع ما ورد في التراث الفقهي لدى المسلمين في تلك الفترة، فقد ظهر ذلك في ثنايا كتابات الفقيه المغربي ابن الحاج التي تناولت مراسم إشهار إسلام أحد أفراد أهل الذمة في مصر في العصر المملوكي، فقد أشار إلى أنه كان يتوجب عليه التوجه إلى خطيب أحد المساجد ليشهر إسلامه على يديه، ثم يعود في صلاة الجمعة التالية ليقف وسط المسجد ويكرر إعلان إسلامه على الملأ، وعندها يتوقف الخطيب عن خطبته لتحدث ضجة فرح عارم².

= يتفق حديث شيلتبرجر مع ما ورد من الشروط الستة المستحبة لعقد الذمة حسب ما ورد في العهدة العمرية من «لبس الغيار المخالف لملايس المسلمين». راجع: الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 137-138. ومن الواضح أن تلك الشروط من وضع الفقهاء المسلمين الذين غالوا في مرحلة متأخرة في فرض القيود على غير المسلمين. فمن الثابت أنهم لم يلتزموا باختلاف الملابس عن المسلمين في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام. عن ذلك راجع: ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج 1، ص 236.

1- Loc.cit.

كما أشار شيلتبرجر أيضاً إلى مراسم تحول النساء أيضاً من المسيحية إلى الإسلام، حيث تتوجه المرأة إلى قاضى القضاة، وتقوم بترديد الكلمات السابقة بالإضافة إلى إنكارها للعقيدة المسيحية ثلاث مرات قبل أن تسلمه حزامها ليشقه إلى نصفين ويجعله على شكل صليب.

2- (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري)، المدخل إلى الشرع الشريف، الجزء الثاني، القاهرة، د.ت، ص 271 «...يتلفظ بالإسلام على رؤوس الناس، ويقطع الخطيب الخطبة بسببه، وتقع ضجة في المسجد...ويتعين على الخطيب أن يأمره بالخروج من المسجد، ويأمر من يخرج معه من المسلمين حتى يغتسل إن كان جنباً»؛ وانظر أيضاً قاسم عبده =



على أن شيلتبرجر لم يذكر المكان الذي شهد فيه عمليات التحول من المسيحية إلى الإسلام، سواء أكان ذلك إبان سنوات أسره لدى العثمانيين أم لدى تيمورلنك وأبنائه، أم لدى أمراء القبيلة الذهبية. كما أننا نعرف أنه سبق له أن زار مصر على عهد السلطان المملوكي الأشرف برسباي عام 1425م، ومكث بها فترة في معية وفد من قبل الأمير المغولي جكرة أوغلان. غير أن صيغة مرسوم تحول الذمي إلى الإسلام لم تتغير تقريباً من منطقة إلى أخرى بفضل العناصر الرئيسية المحددة لها.

ويمكننا أن نلاحظ فارقاً بين حديث كل من شيلتبرجر وميخائيلوفتش عن المساجد ودورها لصالح الأخير؛ لأن فترة أسره التي استمرت من العام 1455م حتى 1463م قد جرت بعد استقرار مؤسسات الدولة

= قاسم، أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية عصر المماليك، القاهرة، 2003م، ص 162 - 163.

وهناك صيغة كاملة حفظها التراث الفقهي الإسلامي منذ القرن الخامس الهجري يذكرها المتحول من أهل الذمة إلى الإسلام هي: «يعلن المسيحي فلان أنه يرفض الدين المسيحي عن اعتقاد، وأنه يعتنق ديانة الإسلام عن اعتقاد؛ لأنه يعلم أن الله ليس له نظير، وأنه نسخ بالقرآن ما أنزله قبله من الكتب والشرائع والأديان. ويشهد المسيحي المذكور: أن لا إله إلا الله، وأن الله ليس له شريك، وأن محمداً عبده، وخاتم رسله وأنبيائه، وأن المسيح ابن مريم هو عبده ورسوله، وأن الله أرسل أحد ملائكته إلى مريم ليخبرها بأنها ستلد عيسى، وأنها حملت من روحه تعالى. وبهذا يخضع المسيحي المذكور لجميع أوامر الإسلام الإلهية المتعلقة بالوضوء والصلاة والزكاة والصيام وغيرها. ويعلم ما يترتب على تركها من العقاب. كما يعلم المحرمات الواجب الامتناع عنها. وعليه، فإنه مال إلى الإسلام حياً فيه. ويحمد الله على هذه النعمة التي أنعم بها عليه، فألهمه اعتناق هذا الدين. هذا هو ما قاله المذكور، قولاً مجرداً عن الخوف، وخالياً عن كل تأثير لأنه يجب ألا يقهر المرء في الدين. عن ذلك انظر: ابن سلمون (ابن سلمون الكناني الغرناطي 1289 - 1365م)، العقد المنظم للحكام فيما يجري على أيديهم من العقود والأحكام، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، 1\186003 الرقم العام 5224، رقم الصنف ع.ك 2166، ص 256.

العثمانية، ولهذا فقد تميز عن شيلتبرجر بالإشارة إلى أن مؤسسة الأوقاف العثمانية كانت تضطلع ببناء المساجد عبر إسهامات السلطان والوزراء والباشوات والتجار الميسورين، كما أشار إلى دور كل من المؤذن والخطيب والإمام داخل المسجد.

كان من الطبيعي - نتيجة لوجود الأسيرين المسيحيين وسط العثمانيين والمغول المسلمين بشكل مستمر - أن يكونا على معرفة تامة بصلواتهم اليومية، وأوقاتها وشروط وأماكن قيامها. وهكذا أشارا إلى الصلوات الخمس المعروفة لدى المسلمين¹.

ويبدو أن إقامة ميخائيلوفتش الطويلة بين الجنود الإنكشارية قد جعلته يتحدث عن الصلاة والوضوء بشكل موضوعي وواقعي، فأشار إلى وجوب الصلاة على جميع المسلمين سواء أكان ذلك داخل المسجد أم في المنازل، كما اهتم بالحديث عن مساجد المسلمين بشكل أكبر مما اهتم به شيلتبرجر، فأشار إلى اتساعها وتميزها بلونها الأبيض، بينما تتوسطها مآذن دائرية يصعد إليها المؤذن لأداء الأذان الذي لم يفضل

Shiltberger, op. cit. p. 67-68; Mihalovic, op. cit. P. 11.

- 1

على الرغم من خطأ الأول عند وصفه لصلاة العشاء بأنها صلاة يؤديها المسلمون لمحمد من أجل الشفاعة. على حين أشار الثاني إلى سبع صلوات على المسلمين بعد إضافة صلاة الضحى وصلاة التهجد. ونتيجة لمكوئهما في الأسر لسنوات طويلة فقد رسدا أيضاً كيفية معاقبة السلطات العثمانية والمغولية لمن يتخلفون عن أداء الصلوات مهما كانت طبقتهم الاجتماعية، فكان يجري تكبلهم على سلاخ خشبية ليطاق بهم في شوارع المدينة، قبل أن يتم توثيقهم أمام المسجد لحين انتهاء الصلاة، حيث يجلدون خمسا وعشرين جلدة. وكذا كان يحدث الأمر نفسه مع الأشخاص الذين تمت إدانتهم بارتكاب الجرائم. انظر:

Shiltberger, op. cit. pp. 68-69; Mihalovic, op. cit. P. 11.

ولاحظ الأخير عدم انتظام بعض الوزراء أو القادة العسكريين من العثمانيين في الصلاة في المساجد.



أيضاً عن ذكر صيغته بشكل سليم¹. وفي ملاحظة جيدة منه ذكر أنه حتى إذا كان المسلم مسافراً، فإنه يتوجب عليه أن يتوقف للتوضؤ، ثم يتنحى عن الطريق جانباً كي يقوم بأداء صلاته².

وفي وصف نادر لمساجد المسلمين من الداخل، أشار ميخائيلوفتش إلى تميزها بالنظافة البالغة، وأنهم قد استخدموا قناديل من الشمع الحيواني من أجل الإضاءة الداخلية بها، بينما تتوسطها المنابر التي كان الشيوخ يتلون القرآن عليها، على حين جلس المصلون على السجاد الذي تميز بنظافته للإنصات بانتباه كبير³. كما اتفق الأسير الصربي مع شيلتبرجر في الإشارة إلى خلع المسلمين لنعالهم ووضعها في مكان محدد خارج المساجد. كذلك أشارا إلى عدم اتخاذ الرسوم والصور بداخلها، وعدم السماح للنساء بدخول المساجد طالما كان الرجال بداخلها، وكذا منع إدخال الأسلحة، فضلاً عن عدم جواز دخول المسيحيين إليها⁴.

على أن المسألة التي استحوذت على اهتمام الأسيرين لأسباب يسهل فهمها تتعلق بتركيزهما على الدور الكبير الذي لعبه خطباء المساجد في حث الجنود العثمانيين على قتال المسيحيين. وعلى سبيل المثال أغفل ميخائيلوفتش كافة القضايا الموضوعية التي تناولها خطباء

1- The memoires of the Janissary, PP. 11, 13.

2- Ibid. P. 11. - ولم يفت الأسيران الإشارة أيضاً إلى أهمية الوضوء لدى المسلم، وأن نقضه إياه يوجب إعادته ثانية. كما لاحظ ميخائيلوفتش أيضاً اهتمام المسلمين بنظافتهم الشخصية «... فهم دائماً ما يرتدون الملابس النظيفة لدى توجههم لأداء الصلوات، فإذا ما أصابها أي اتساخ فإنهم يقومون بتبديلها على الفور».

3- Ibid. P. 13.

4- انظر: Shiltberger, op. cit. P. 68; Mihalovic, op. cit. p13.

الجمعة آنذاك، وقام باتهامهم على الدوام بالحث على الجهاد ضد المسيحيين، فأورد في كتابه عبارات من تلك الخطب تحض على هذه الفكرة، وتشيد بالذين استشهدوا في ميادين القتال ضد القوى الأوروبية المسيحية¹.

المسألة التي استحوذت على اهتمام الأسيرين تتمثل بالدور الكبير الذي لعبه خطباء المساجد في حث الجنود العثمانيين على قتال المسيحيين

كذلك الحال مع شيلتبرجر الذي توقف كثيراً أمام الدعاء الذي كان يؤديه المسلمون بعد الانتهاء من صلاة الجمعة؛ حيث يرفع المصلون أياديهم داعين الله بصوت واحد أن ينتقم من المسيحيين قائلين: «اللهم فرق جمعهم». وفي إسقاط منه على وضعه في الأسر، وعلى تمنياته كمسيحي، يشير إلى أن المسلمين يبتهلون إلى الله بهذا الدعاء؛ لأنهم يقولون: إنه لو اتحد المسيحيون وساد السلام فيما بينهم فسوف ينتصرون على المسلمين².

وحدث أن قاوم ميخائيلوفتش انحيازه الديني والثقافي ذات مرة، وتعرض بحياد لتعامل خطبة الجمعة مع المسيحيين الخاضعين للحكم العثماني؛ حيث سجل دعوة الخطيب إلى تطبيق أوامر السلطان العثماني محمد الفاتح بعدم ظلم الرعايا المسيحيين أو اقتحام منازلهم وبساتينهم³.

1- The Memoires of the Janissary, P. 13.

«.....عندما تشاهدون الجنود المسلمين العائدين من قتال المسيحيين امنحوهم الشرف والسلام، وقوموا بتقبيل أياديهم وأقدامهم وهكذا تكونون قد شاركتهم بشكل ما في الجهاد».. «صلوا من أجل أرواح آبائكم، ومن أجل أولئك الذين استشهدوا في الحروب ضد المسيحيين»..

2- The Bondage and Travels, P. 69.

3- The Memoire of the Janissary, P. 29, 169.



وكأنه يورد الفارق بين معاملة العثمانيين للمسيحيين الخاضعين لهم، ومعاملة أعدائهم المسيحيين الأوربيين والبيزنطيين في أراضي البلقان وطرايبزون وغيرها.

أدرك ميخائيلوفتش أيضاً مكانة المصاحف عند المسلمين، فلاحظ تبجيلهم وتقديسهم لها، ومحافظةهم عليها وحملها معهم دائماً، ولاحظ أن جميع الجنود العثمانيين يحملون أيضاً مصاحف صغيرة تحت إبطهم في أوقات الحروب غير أنه أسماها أحياناً بالحمايلي hamahely¹، كما لفت نظره إلى أنهم كانوا يكتبون اسم «ذو الفقار» أسفلها زاعمين أن ذلك يجلب لهم النصر في المعركة.

وهنا تظهر من جديد تأثيرات أفكار الدراويش أتباع الطريقة البكتاشية الذين تسلكت الأفكار الشيعية إليهم على سلوك الجنود العثمانيين والإنكشارية الذين عاش ميخائيلوفتش بينهم ثماني سنوات. وما لم يذكره بوضوح أنهم استخدموا المصاحف الصغيرة كأحجبة للحماية ودفع الأخطار، وكذلك من أجل جلب النصر في المعركة.

ومن الغريب على الصربي ميخائيلوفتش عدم الربط بين تلك الممارسة للتدين الشعبي لدى الجنود الإنكشارية المسلمين - على اختلاف مذاهبهم - وبين بعض الممارسات التي تعبّر عن التدين الشعبي المسيحي في البلقان؛ كالتبرك بالأيقونات ورفات القديسين، وغير ذلك من الطقوس والمعتقدات الشعبية الأخرى السابقة على

The Memoires of the Janissary, P.9.

- 1

الحمايلي: حجاب يحمل دائماً ويلقى على الجسم لحماية صاحبه من أوام الشياطين والجان. انظر: محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دمشق، 1990م، ص64.

المسيحية في صربيا والبلقان، كانتظار هطول الأمطار في مواعده السنوي، والربط بينه وبين الخصوبة وبين عوامل أخرى متعلقة بالحياة البدائية للمجتمعات الريفية في نقاط التماس على الحدود المشتركة بين العثمانيين ومختلف شعوب البلقان¹.

غير أن الأمر لم يَخُلْ من إشارة طريفة حول سلوكيات بعض الجنود العثمانيين، فبعد أن ذكر ميخائيلوفتش أنهم يجلبون المصاحف ويُقسِمون عليها لاحظ أن هذا لم يمنع بعضهم من أن يحمل أحياناً أحجية صغيرة تحوي قطعاً من الصابون البندقي ليقسموا عليها حين تعرضهم لبعض المواقف الصعبة².

ويحوي حديث ميخائيلوفتش السابق إشارة تعبّر عن دلالة اقتصادية آنذاك؛ إذ إننا نعرف أن الصابون البندقي كان قد أثبت تفوقه على الصابون التركي المحلي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، وهو ما جعل منه أحد أهم السلع والبضائع في حركة التجارة بين الدولة العثمانية والمدن الإيطالية³، بالإضافة إلى سلع أخرى كالدقيق، وحجر الشبه، والحبوب، والأقمشة، والمعادن.

كما استحوذت مسألة تحريم الإسلام لشرب الخمر على اهتمام الأسيرين أيضاً⁴. وبصرف النظر عن ذلك، فقد ترك لنا الأسير

1 - Vryonis, «Religious Changes» PP. 154-156؛ راجع أيضاً: بيتر شوجر، أوروبا العثمانية 1354-1804 (في أصول الصراع العرقي في الصرب والبوسنة)، ترجمة عاصم الدسوقي، القاهرة، 1998م، ص70-71.

2 - The Memoires, P.9.

3 - Fleet, K., European and Islamic Trade in the Early Ottoman State, Cambridge, 1999, PP.24-26.

4 - Shiltberger, op. cit. p72.; Mihalovic, op. cit. p13.



الصربي إشارة أكثر دلالة على حدوث بعض الاستثناءات، فذكر أن بعض رجال الحاشية والقادة العسكريين كانوا يشربون الخمر¹، مما يشي بعدم انتظام مسألة تطبيق العقوبات داخل المجتمع العثماني آنذاك.

على أنه عاد - في ملاحظة لا تخلو من دلالة أخرى ذات مغزى - فأشار إلى أنه عندما يتوجه الجميع إلى ميدان القتال لمحاربة المسيحيين فإنهم لا يقربون الخمر على الإطلاق، في الوقت الذي يسمحون فيه للجنود المسيحيين الذين كانوا يحاربون معهم في صفوف الإنكشارية بشرب الخمر دون ممانعة، حتى إنهم كانوا يقومون بتزويدهم بها وتلبية احتياجاتهم². ولا بد أن حاجة العثمانيين للاستفادة من تلك القوات المسيحية في ميادين القتال هي التي فرضت تلك عليهم إبداء المرونة في هذه المسألة.

ونظراً لطول فترة الأسر لدى المسلمين فقد حضر الأسيران صيام شهر رمضان³ وأعياد المسلمين، فتحدث شيلتبرجر عن عيد الفطر الذي يستمر لثلاثة أيام، واصفاً خطبة العيد. ومرة أخرى فرضت الهواجس التي انتابت الأسير الألماني نفسها، فلم يذكر من

= ذكر شيلتبرجر أن نبي المسلمين قرر تحريمها بسبب العريضة وعمليات الشجار والقتل التي حدثت بسببها. بينما أكد ميخائيلوفتش على مسألة تحريم الخمر، فأشار إلى أنه ليس هناك مسلم حقيقي يعاقر الخمر، وإذا ما أدين شخص بذلك فإنه يعاقب بقسوة، دون أن يحدد لنا كيفية تنفيذ تلك العقوبة.

Mihalovic, op. cit. p 13.

- 1

Loc.cit

- 2

- 3. The Bondage and Travels, p. 70. الذي عرض لمسألة عدم جواز اقتراب المسلمين من زوجاتهم في نهار رمضان، كما انفرد عن زميله بالإشارة إلى أن الدين الإسلامي منح رخصة الإفطار للمرضى والمرأة الحامل والمرضة.

خطبة العيد سوى الدعاء بطلب العون والقوة من الله لمحاربة أعداء الدين الإسلامي. كما تعرض بتفصيل أكبر مع بعض التشوش لكيفية احتفال المسلمين بعيد الأضحى وقيامهم بذبح الشياه والثيران وتوزيعها على الفقراء¹.

لم يذكر الأسير شيلتبرجر من خطبة عيد الفطر التي سمعها وهو في الأسر سوى الدعاء بطلب العون والقوة من الله لمحاربة أعداء الدين الإسلامي

وحدث لدى ميخائيلو قتش أيضاً بعض الخلط فيما يخص أعياد المسلمين، فهو يسمي عيد الفطر بالعيد الكبير Buiuk Bayram، الذي يأتي قبل الحصاد ويستمر لثلاثة أيام، كما ذكر في اقتضاب أن عيد الأضحى هو العيد الصغير Cuczuk Bayram لدى المسلمين، وهو يحل في وقت الخريف².

ويمكننا أن نحاول تفسير تحديده لعيد الأضحى في الخريف عن طريق رصد عدد مرات ورود عيد الأضحى خلال سنوات أسره الثمانية لدى العثمانيين 1455 - 1462م/860 - 868هـ، لنجد أنه قد حل بالفعل لخمس مرات في فصل الخريف، وذلك خلال شهور نوفمبر وأكتوبر وسبتمبر على الترتيب في الأعوام من 1455 - 1459م³.

1- The Bondage and Travels, p. 71.

ويبلغ التشوش مداه لدى شيلتبرجر الذي عاش وسط المسلمين لثلاثة عقود حينما يذكر أن الحجاج المسلمين يزورون فيه قبر الرسول والكعبة المشرفة في المدينة المنورة.

2- Memoires, p. 3.

3- عن ذلك راجع: ويستفيلد، ف، جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها، ترجمة عبد المنعم ماجد وعبد المحسن رمضان، القاهرة، 1980م، ص 78.



لكن الغريب أنه أورد عن حق ما سمعه من الحجاج العثمانيين الذين عادوا إلى بلادهم عن كيفية اقتطاعهم خرقاً صغيرة من كسوة الكعبة؛ ليحتفظوا بها ولتكون دليلاً دامغاً على قيامهم بالحج. وهو الأمر نفسه الذي ورد بعد ذلك في كتابات الأسير الإنجليزي جوزيف بتس، الذي زار مكة المكرمة العام 1680م، حيث أشار إلى أنه بعيد انتهاء فترة الحج قام شريف مكة بتحويل كسوة الكعبة إلى قطع صغيرة من أجل بيعها للحجاج الذين أقبلوا على شرائها¹.

وبعيداً عن التركيز على القضايا التي استوجبت انحيازاً ثقافياً من جانب الأسيرين - كمسألة بنية الدين الإسلامي ومبادئه التي حضت على اضطهاد وقتال المسيحيين أينما وجدوا - فقد توقفاً أمام المظاهر الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية الإيجابية لسكان المسلمين الذين عاشوا في أوساطهم، ولم يستنكفوا عن الحديث عنها بحياد تام. من ذلك ملاحظة شيلتبرجر أن ملاك البيوت المسلمين لم يتقاضوا إيجاراً من شاغليها خلال شهر رمضان، وكذلك عدم مغالاة التجار المسلمين في أسعار السلع والبضائع، ولاحظ أنهم كانوا يقنعون بربح عادل ربما بلغ واحداً على أربعين من سعر السلعة المباعة².

كما أشار ميخائيلوفتش أيضاً إلى أن المسلمين كانوا يتقربون إلى الله بعثق العبيد الموجودين لديهم، فضلاً عن قيام الأثرياء منهم

1- رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة ودراسة عبدالرحمن الشيخ، القاهرة، 1995م، ص54. ذكر بتس أن الحجاج يقبلون على شراء تلك القطع من كسوة الكعبة المشرفة لاستخدامها كحجاب ضد الخطر، وكذلك لوضعها فوق صدورهم عندما يوافيهم الموت.

2- The Bondage, P. 75. ذكر أن المسلمين «اعتبروا ذلك بيعاً عادلاً أمر به محمد كي يعيش الفقراء في سعادة إلى جوار الأغنياء».

بتقديم الأضحيات من الشياه والماعز والجمال، وكذا توزيع اللحوم والخبز والأموال على الفقراء. غير أن المثير في الأمر أنه ذكر بعياد يحسب له أن الموزعين لتلك الصدقات لم يكونوا يفرقون بين الفقراء المسلمين والمسيحيين¹.

كما انفرد بذكر الرعاية التي أولاها السلطان العثماني محمد الفاتح لمئات الآلاف من رعاياه المسيحيين، فقد اهتم بإجراء تعداد سكاني لهم، بحيث دفع كل مسيحي ضريبة رأس تبلغ أربعين أسبره Aspri أو أقجه akca، وهو ما يعادل قطعة ذهبية واحدة من الفلورين florin سنوياً، بينما دفع المسيحي القادر على الكسب والربح قطعتين ذهبيتين، كما قام الفلاحون المسيحيون بدفع نصف الضريبة السلطانية إلى أصحاب التيمارات، فضلاً عن عُشر الحبوب الموجودة².

وهكذا، فعلى الرغم من الانحياز الثقافي لميخائيلووثش لصالح المسيحية، وضد الدين الإسلامي؛ فقد استمر في الإشارة إلى التسامح الكبير الذي أبداه العثمانيون تجاه رعاياهم المسيحيين، فأشاد بأوامر السلطان محمد الفاتح لجنوده بعدم السير بخيولهم وسط أراضي المسيحيين، وأن من يتسبب منهم في إحداث خسائر في الحبوب أويقوم بالاستيلاء عليها دون أن يدفع تعويضاً لذلك سوف ينال عقوبة القتل نتيجة لذلك³. كما أورد مثلاً لجندي عثماني مسلم حكم عليه بالإعدام نتيجة لاستيلائه على لبن تمتلكه إحدى

Memoires, P.3.

-1

Ibid, P.189.

-2

Memoires, P.189.

-3



الفلاحة المسيحية دون أن يدفع تعويضاً لذلك، كما أورد مثلاً آخر على عدالة السلطان الفاتح مع رعاياه المسيحيين الذين أمرهم بضرورة إرسال آلاف من الماشية أو الخيول للعمل في جرّ معدات الجيش العثماني، فضلاً عن إرسال المؤن الغذائية، مقابل تحديدهم السعر المطلوب فيها بشكل عادل، حتى لا يتسبب ذلك في أية خسارة يمكن أن تحيق بهم¹.

ويمكن القول في النهاية: إن رؤية الأسيرين شيلتبرجر وميخائيلوفتش عن الإسلام كانت مغايرة في تفاصيلها عن رؤى النخبة الأوروبية، فلم يهتما بطعن الإسلام كدين أو وصمه بالوثنية المطلقة، ولا بطعن نبيه كما فعلت الكتابات الكنسية؛ بل استفادا من تعاملهما اليومي مع المسلمين، وإن لم يخلُ الأمر من التأثير بالرؤية الشعبية الصوفية للإسلام، التي تسلت إليها أيضاً العديد من الروافد الشيعية، خاصة تلك التي رفعت علي بن أبي طالب إلى مقام النبوة.

كما تناول الأسيران بحياد موقف الإسلام من الدين المسيحي وتبجيله لعيسى ومريم، غير أنهما أفاضوا في اتهام الإسلام بالحض على اضطهاد وقتل المسيحيين. وبفضل تجربتهما الخاصة التي مكنتهما من العيش والتعامل اليومي مع السكان المسلمين لسنوات طويلة، فقد اتصفا بالموضوعية في كثير من الأحيان عند الحديث عن العديد من الصفات الإيجابية التي تمتع به المجتمع الإسلامي الذي عاشا بداخله تجربة الأسر.

Loc.cit

- 1

بالإضافة إلى ما سبق، لم يذكر الأسيران أنهما دخلا لمرة واحدة في جدال ديني مع المسلمين العثمانيين أو المغول، ومن الطبيعي أن نفترض أن ذلك لم يتم نظراً لحساسية وضعهما في الأسر، وربما يرجع ذلك إلى خلفيتهما الدينية البسيطة بوصفهما في الأصل جنديين عاديين لا يتمتعان بثقافة دينية رفيعة تؤهلها لذلك. غير أن هذا يشي أيضاً بالتسامح الديني الذي أبداه العثمانيون تجاههما، وهو ما تجلى عبر عدم إشارة الأسيرين إلى تعرضهما لأي اضطهاد يرغمهما على التحول إلى الإسلام.